اسم المقياس:النص الأدبي القديم–شعر–

اسم الأستاذ: محمد سيف الإســـلام بـــــوفلاقـــــة

المستوى:س:01–ليسانس

تحليل مقطوعات شعرية من البلاد الأندلسية ، القسم الأول

ومن بين مراثيه المتميزة،تلك القصيدة التي يرثي فيها بعض أصحابه الذين رحلوا،ويبدو فيها في غاية الحزن والتأثر لرحيلهم،بعد أن كانوا رفقته يتجولون مع بعضهم البعض في الحدائق والرياض الغناء،يقول:

فإذا مررت بمعهدِ لشبيبةِ أو رسم دار للصديق خلاء

جالت بطرفي للصبابة عبرة كالغيم رقَّ فجال دون سماء

ور فعتُ كفِّي بين طرف خاشع تندى مآقيه وبين دعاء

وفي مدحه يُركز ابن خفاجة على العناصر التقليدية التي يمدح بها فيذكر الفطنة والبطولة والنسب والشهرة،مثل قوله عند مدح تميم:

ونالَ تميمُ سؤدد الكهل في الصّبي فتم تمام البدر في غُرَّة الشهر

وحلَّت به الأملاك وهي شريفة محل ليالي الصوم من ليلة القدر

-الطبيعة عند ابن خفاجة ضاحكة طروب،هي مسرح للهو ومقصف للشراب،ولذا فقد هتف ابن خفاجة بالخمر في جو الطبيعة المشرق الجميل،فلنسمعه يصف هذه الحديقة الراقصة لنرى أن الطرب والرقص والغناء وسمات الحسن هي قوام هذا الوصف ،وأن الخمر ظل ضئيلاً في هذا الوصف للطبيعة اللاهية:

وَصَقيلَةِ الأَنوارِ تَلوي عِطفَها ريحٌ تَلُفُّ فُروعها مِعطارُ
عاطى بِها الصَهباءَ أَحوى أَحوَرٌ سَحّابُ أَذيالِ السُرى سَحّارُ
وَالنورُ عِقدٌ وَالغُصونُ سَوالِفٌ وَالجِذعُ زَندٌ وَالخَليجُ سِوارُ
بِحَديقَةٍ ظَلَّ اللِمى ظِلا بِها وَتَطَلَّعَت شَنَباً بِها الأَنوارُ
رَقَصَ القَضيبُ بِها وَقَد شَرِبَ الثَرى وَشَدا الحَمامُ وَصَفَّقَ التَيّارُ
غَنّاءَ أَلحَفَ عِطفَها الوَرَقُ النَدي وَالتَفَّ في جَنَباتِها النُوّارُ
فَتَطَلَّعَت في كُلِّ مَوقِعِ لَحظَةٍ مِن كُلِّ غُصنٍ صَفحَةٌ وَعِذارُ

ومثل هذا الجو نجده في وصف هذه الأراكة الحسناء التي ضربت ظلها فوق هذا الجمع الطروب بجوار جدول نثرت عليه الأزهار ودارت حول ضفافه كؤوس خمر عروس فاجتمعت في هذه الروضة فتنة الطبيعة ونشوة الطرب:

وأراكة ضَرَبَتْ سَماءَ فوقنا تَنْدَى،وأفلاكُ الكؤوس تُدارُ
حَفَّت بدوحتها مجرَّةُ جدول نَثرت عليه نجومها الأزهارُ
وكأنها وكأن جدول مائها حسناءُ شُدَّ بخصرها زُنَّار
زف الزجاجُ بها عروسَ مُدامة تُجْلَى ونُوَّار الغصون نِثار
في روضةٍ جُنْحُ الدجى ظِلٌّ بها وتجسَّمت نَوراً بها الأنوار

وتستهوي الشاعر شجرة نارنج مثمرة فيصفها،فإذا بها في حلة بهية،وإذا الأوصاف الحسية تندمج بما يبعث فيها من حركة وحياة،وإذا الطبيعة التي تحيط بها مرحة مغردة،يخطب فيها الطير،وليس علينا بعد من عذر إذا لم نمل طرباً في أفياء هذا الدوح الظليل الرطيب:

أَلا أَفصَحَ الطَيرُ حَتّى خَطَب وَخَفَّ لَهُ الغُصنُ حَتّى اِضطَرَب
فَمِل طَرَباً بَينَ ظِلٍّ هَفا رَطيبٍ وَماءٍ هُناكَ اِنسَكَب
وَجُل في الحَديقَةِ أُختِ المُنى وَدِن بِالمُدامَةِ أُمِّ الطَرَب
وَحامِلَةٍ مِن بَناتِ القَنا أَماليدَ تَحمِلُ خُضرَ العَذَب
تَنوبُ مورِقَةً عَن عِذارٍ وَتَضحَكُ زاهِرَةً عَن شَنَب
وَتَندى بِها في مَهَبِّ الصَبا زَبَرجَدَةٌ أَثمَرَت بِالذَهَب

3-هذه الحياة التي شعت في الأمثلة السابقة تسم أكثر أوصاف الطبيعة عند ابن خفاجة.فهو يشخصها ويرى في جمالها جمال المرأة ويصورها على نحو إنساني تملؤه الحركة والنشاط.ولهذا التشخيص أمثلة كثيرة في شعره،فلنسمعه يصف شجرة منورة:

يا رُبَّ مائِسَةِ المَعاطِفِ تَزْدَهي مِن كُلِّ غُصنٍ خافِقٍ بِوِشاحِ
مُهتَزَّةٍ يَرتَجُّ مِن أَعطافِها ما شِئتَ مِن كَفَلٍ يَموجُ رَداحِ
نَفَضَت ذَوائِبَها الرِياحُ عَشِيَّةً فَتَمَلَّكَتها هِزَّةُ المُرتاحِ
حَطَّ الرَبيعُ قِناعَها عَن مَفرِقٍ شَمَطٍ كَما تَرتَدُّ كاسُ الراحِ
لَفّاءُ حاكَ لَها الغَمامُ مُلاءَةً لَبِسَت بِها حُسناً قَميصَ صَباحِ
نَضَحَ النَدى نُوّارَها فَكَأَنَّما مَسَحَت مَعاطِفَها يَمينُ سَماحِ

4-وفتنة الشاعر هي على الأغلب في الرياض والزهور ولهذا لقب ب «الجنان»،ويعتمد على التشخيص-كما رأينا-والتشبيه بمحاسن المرأة في إظهار محاسن روضياته،وقد يقف عند بعض الجزئيات فيها،ولكن كثيراً ما تظهر روضياته في إطار من اللهو على شكل نزهات في رحاب الطبيعة التي يبدع في تجسيمها أيما إبداع، على أن روضياته تتشابه فهي محصورة في إطار واحد تمثله الحديقة بما فيها من أشجار وجداول وأزهار وظلال وارفة وحمائم تتداعى ونسمات عليلة وندامى يشربون ويغنون ويطربون.

5-وقد وصف ابن خفاجة الطبيعة الحية كالفرس والذئب وله في وصف الفرس أبيات تتراءى فيها البراعة والجدة في التصوير،فيقول:

وَمُطَهَّمٍ شَرِقِ الأَديمِ كَأَنَّما أَلِفَت مَعاطِفُهُ النَجيعَ خِضابا
طَرِبٌ إِذا غَنّى الحُسامُ مُمَزِّقٌ ثَوبَ العَجاجَةِ جيئَةً وَذَهابا
قَدَحَت يَدُ الهَيجاءِ مِنهُ بارِقاً مُتَلَهِّباً يُزجي القَتامَ سَحابا
وَرَمى الحِفاظُ بِهِ شَياطينَ العِدى فَانقَضَّ في لَيلِ الغُبارِ شِهابا
بَسّامُ ثَغرِ الحَلي تَحسِبُ أَنَّهُ كاسٌ أَثارَ بِها المِزاجُ حَبابا

6-يتبين مما تقدم أن ابن خفاجة يمثل نهضة شعر الطبيعة في الأندلس،وقد استطاع أن يصور طبيعتها الجميلة،والحياة اللاهية في أحضانها،وكان في وصفه مصوراً بصرياً بارعاً يعتمد على دقة ملاحظته إلى جانب قوة خياله.وقد يكون قد أغرق في الصنعة والمحسنات البديعية،ومع ذلك استطاع ألا يجعلنا نشعر بثقلها إلا في بعض أوصافه،على أن الصنعة عنده أداة للتجميل،وقد امتزجت بقوة خياله وأناقة ألفاظه وترف صوره فجاءت مقبولة.

وابن خفاجة من الشعراء الذين اتصلوا بالطبيعة كما أشرنا،ولكن هذا الاتصال لم يبلغ مبلغ الامتزاج الكلي بها إلا في بعض قصائده ولاسيما قصيدته في وصف الجبل، وتبقى الطبيعة عنده صورة لاعتدال القد واهتزاز الخصر وابتسام الثغر،وهي في صورها ترضي لذة الحس وقلما تبعث في النفس لذة الروح.وشأن شاعرنا فيها كشأن باقي أعلام شعراء الطبيعة في أدبنا العربي،فهم لم يلجئوا في وصفها إلى إدراك حس الطبيعة كما أدركه الشعراء الغربيون،وإنما بقيت الطبيعة عندهم متاعاً للعين وفناً وصفياً تجمله الزخارف والألوان ولا تتشابك فيه العواطف والأحزان إلا نادراً»[60].

يُقسم الدكتور رضوان الداية الشعر الأندلسي الذي يُعنى بالطبيعة إلى ثلاث مراحل رئيسة:
الأولى :تنطلق مع بداية الشعر الأندلسي في أول عصوره وتنتهي مع أواخر القرن الرابع الهجري.
والثانية:تستمر إلى ظهور ابن خفاجة واكتمال طريقته الخاصة في وصف الطبيعة.
والثالثة تتعلق بابن خفاجة ومن جاء بعده من الشعراء،وفي هذه المرحلة ظهرت العناية بكثرة الصور والتصنيع والتصنع.

ويرى الأستاذ هنري بيريس أن الموضوعات التالية موضوعات أندلسية صميمة:مدح الأندلس باعتبارها جنة من الجنان،ووصف المدن الأندلسية وميل الأندلسيين إلى الجنائن وتعلقهم بالأماكن ذات المناظر البديعة،والمنتزهات الريفية في المدن الأندلسية،والوديان والجبال والحدائق والأزهار والأشجار والفواكه والخضروات،والبحيرات والبرك والنافورات والجداول والأنهار ومناظر صيد السمك في السفن والبحر وركوبه ووصف الأساطيل ومجالس اللهو والأنس.

و يربط بعض الباحثين تطور الشعر الأندلسي وتميزه عن المشرقي ،وظهور التجديد فيه بشعر الطبيعة ،حيث يُرجع الدكتور يوسف عيد ازدهار الشعر في الأندلس الذي نال إعجاب الكثير من النقاد والباحثين إلى عوامل متعددة، من بينها:
«-روح الشاعرية الموهوبة المتأصلة في نفس العربي أينما حل وحيثما ارتحل.
-تعدد البواعث التي كانت تُلهم الشعراء الشعر،وتدفعهم إلى قرضه.
-كثرة جمهرة العرب في الأندلس،وتمكن السلطان في أيديهم،وشدة عنايتهم باللغة العربية وآدابها.
-طبيعة الأندلس وما فيها من المناظر المختلفة والأمصار المتصلة والأدواح الظليلة،والأنهار الجارية،والسهول الخصبة،والجبال المكسوة،والمروج الموشاة بألوان الزهر،والقصور الشاهقة،والرياض الغناء ،كل ذلك أكسب المشاعر انطلاقاً والملكات اشتعالاً والوجدان لطفاً والمعاني دقة،والألفاظ جمالاً وروعة.

-عناية الملوك والأمراء بقرض الشعر حملت الشعب جميعه على الإقبال عليه،حتى أصبح قول الشعر زينة لكل أديب،وجمالاً لكل عالم،أولع به الفقهاء والنحاة والفلاسفة،والرياضيون،والأطباء،والمؤرخون،كما أولع به الكثير من النساء حتى نبغن فيه»[39].

والحق أن الشعر الأندلسي بصورة عامة-كما يقول الرافعي- يمتاز «بتجسيم الخيال النحيف،وإحاطته بالمعاني المبتكرة التي توحي بها الحضارة،و التصرف في أرق فنون القول،واختيار الألفاظ التي تكون مادة لتصوير الطبيعة،وإبداعها في جمل وعبارات تخرج بطبيعتها كأنها مقطوعة موسيقية، بل هي تحمل على التلحين بما فيها من الرقة والرنين،ولا يشاركهم في ذلك إلا من ينزع منزعهم ويتكلف أسلوبهم،لأن جزالة اللفظ في شعرهم إنما هي روعة موقعة ».

ومهما يكن من شيء فالشعر الأندلسي تميز بتعبيره أصدق تعبير عن مظاهر طبيعة بلاده،وهو لم يكتف بالتعبير الشكلي بل عبر عن أحاسيسه وعواطفه التي أثارتها في نفسه هذه الموضوعات الطبيعية،وحاول أن يسجل تلك اللحظات والتجارب النفسية بأسلوب فني يثير في سامعه أحاسيس مشابهة لتلك التي أثيرت في وجدان الشاعر،وقد وقفوا في ذلك كثيراً،فكانوا صادقين في عواطفهم وصادقين في أحاسيسهم،وصادقين في تعبيرهم»[40].

و في هذا الصدد يقول الباحث محمد حسن قجة: «إذا كان الأدب ابن البيئة التي يعيش فيها ويتفاعل معها،فإن أدب الطبيعة في الأندلس شاهد حي على صدق ذلك،لقد بدأ الأدب الأندلسي في أول مرة ينسج على منوال المشارقة في معانيهم وأخيلتهم وأساليبهم،ثم بدأ بعد ذلك يتخذ لنفسه طريقاً متميزاً يحاول من خلاله تأكيد خصوصيته وترسيخ استقلاليته ضمن أطر أندلسية بحتة.

واستغرقت هذه الرحلة في التميز والتمحور حول شخصية أدبية مستقلة عدة قرون حتى استوت ناهضة على يد شعراء كبار يقف في طليعتهم ابن خفاجة،وابن حمديس وسواهما من عمالقة الأندلس.

الأندلس بلاد ذات طبيعة جميلة توفرت لها عناصر الخصب من مياه كثيرة وأنهار ومناخ معتدل وأرض معطاء إلى جانب اليد الماهرة الصناع التي عرفت كيف تتعامل مع الطبيعة الجميلة فتنسقها في حدائق ورياض وبرك ماء ونوافير وأزهار مختلفة.

ثم جاء الشاعر ففتن بتلك الطبيعة الخلابة،سواء أكانت طبيعة طبيعية أم طبيعة اصطناعية وأطلق لخياله العنان مع الطيور المغردة والأريج المنتشر والشذى الفواح وخرير المياه وحفيف الأغصان،فتولدت لديه الصور والتشبيهات والأخيلة،وانطلق يغزل من الكلمات وشياً وحللاً لم يعرف الأدب العربي لها مثيلاً من قبل.

في المشرق كان شعر الطبيعة قد بدأت ملامحه لدى ابن الرومي في القرن الثالث للهجرة،ثم بلغ ذروته في بلاط سيف الدولة الحمداني في مدينة حلب خلال القرن الرابع للهجرة،ذلك البلاط الذي شهد قمة الشعر العربي متمثلة بأبي الطيب المتنبي، وقمة شعر الطبيعة المشرقي متمثلة بالشاعر الصنوبري المبدع،ومما لا شك فيه أن شعر الطبيعة في حلب قد ترك بصماته على الأدب الأندلسي في مبدأ الأمر إلى أن تمكن الأندلسيون من التمايز شيئاً فشيئاً. ونحن نرى في شعر الطبيعة لدى شعراء حلب خلال القرن

الرابع الهجري وقفات على مشاهد مختلفة مثل الروضيات والزهريات والثلجيات و المائيات وسواها،ونجد بعد قرن من ذلك الوقفات نفسها لدى شعراء الأندلس إنما في سياق يحاول الاستقلال بنفسه قدر الإمكان»[41].

و بالنسبة إلى الخصائص العامة التي طبعت شعر الطبيعة في بلاد الأندلس، فالدكتور الأوسي يعتبر أبرز هذه الخصائص التشخيص والعناية بالألوان والحركة،حيث أضفى الكثير من الشعراء الصفات الإنسانية على الموضوعات الطبيعية من أنهار وأشجار،وأزهار وحمام ...إلخ،وقد ناجوا الطبيعة وحادثوها مثلما يحادث الإنسان إنساناً آخر،واعتنوا بالألوان وظهرت في رسمهم للمناظر الطبيعية المختلفة،وتجلت وكأنها صورة زيتية ملونة،مع الاعتناء بتوزيع الظلال والضياء وتصوير الحركة والسكون،فجاءت هذه القطع الأدبية وكأنها صور ناطقة متحركة،والعناية بالألوان والحركة والتشخيص كانت موجودة في العصور السابقة،بيد أنها تجلت في الشعر الأندلسي على نحو أوضح وأعم.

ومن المميزات الأخرى لشعر الطبيعة بالأندلس وحدة الموضوع وتماسك بناء القصيدة بمعنى أننا نجد القصيدة وحدة متماسكة تتألف من أجزاء مرتبة ترتيباً معيناً يعبر عن معنى مترابط،أو عاطفة معينة،بحيث يصعب التقديم أو التأخير في أجزائها أو الحذف منها دون المساس بالمعنى الذي يرغب الشاعر في التعبير عنه،ودون تشويه الصورة العامة للقطعة الأدبية،ويضاف إلى هذا الأمر أن الكثير من شعراء الأندلس تعلقوا بمدنهم وصوروا طبيعتها الخلابة،وأشواقهم إليها[42].

و اعتماداً على منظور الباحث الدكتور جودت الركابي فالخصائص التي امتاز بها شعر الطبيعة في الأندلس هي :

«1-أنه شعر يمثل تعلق الشعراء الأندلسيين ببيئتهم وتفضيلها على غيرها من البيئات،بعد أن كان هواهم متعلقاً بصور الجزيرة العربية،فابن خفاجة يتعلق بالأندلس ويراها جنة الخلد،ويرى أن كل ما فيها جميل مطرب،ولابن زيدون وابن حمديس ولغيرهما من الشعراء مثل هذا التعلق.وهذا الحب.

2-هو شعر يصف طبيعة الأندلس الطبيعية والصناعية،فشعراء الطبيعة يصفونها كما أبدعها الله في الحقول والرياض والأنهار والجبال والسماء والنجوم،ويصفونها كما صورها الفن مجلوة في القصور والمساجد والبرك والأحواض فيكمل تذوقهم لجمال الطبيعة وتتضح ألوانها وأشكالها أمام أنظارهم فيزدادون لها حباً،وبها تعلقاً،وهم كذلك قد أتوا على أوصاف جديدة للطبيعة الحية كما فعل ابن خفاجة في وصف الفرس والذئب.

3-وهو شعر يصف الأقاليم الطبيعية المختلفة لبلاد الأندلس،فكان لبعض الأقاليم شعراؤها الذين اهتموا بوصف ديارهم،فابن زيدون يتغنى بقرطبة وزهرائها،وابن سفر المريني يصف إشبيلية،وأبو الحسن بن نزار يتعلق بوادي أشات فيصوره تصويراً ينم عن براعة بما يتركه في النفس من طراوة الندى والظل والشجر،وهكذا كان شعراء الأندلس يعبرون عن مشاهد طبيعية كما رأوها وعاشوا في رحابها وأحسوا بجمالها.

4-الطبيعة عندهم طروب تبعث جو الطرب،ووصفها يمثل الجوانب الضاحكة الندية منها،وأكثر شعرهم في الطبيعة وصف لمنتزهاتهم ومجالس أنسهم ولهوهم في أحضانها....

5-وصف الطبيعة عندهم متصل بأغراض متنوعة، فقد رأينا شعراء الأندلس لا يذكرون الطبيعة إلا في رحاب الجمال بل لا يذكرون الجمال إلا في رحاب الطبيعة، وشعرهم يعنى بتشخيص الطبيعة وتصويرها على نحو إنساني تملؤه الحركة والنشاط كما في شعر ابن زيدون وابن خفاجة وغيرهما...

6-وشعر الطبيعة عندهم لا يظهر كغرض مستقل إلا نادراً في بعض المقطوعات والقصائد،وقد امتزج في أكثر الأغراض التي طرقها الشعراء الأندلسيون،وكان الغزل أكثر هذه الأغراض امتزاجاً بالطبيعة،إلا أن هذه الثنائية نراها أيضاً في المدح والرثاء والعتاب والفخر.

7-وقد كان لطبيعة الأندلس وما احتضنت من طرب أثر في اختراع قالب شعري جديد طبعته الأندلس بطابعها ألا وهو (الموشح)ذلك الفن الشعري المستحدث الذي غنى طبيعة الأندلس ولهوها وعاش في نعيم ظلالها وعبق ريحانها»[43].

والملاحظ في الشعر الأندلسي ذلك المزج بين الأغراض المتنوعة وشعر الطبيعة،وهذا يعد من مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي،فهذا الأمر غير معهود بكثرة لدى الشعراء المشارقة، ويذكر الباحث الدكتور مصطفى الشكعة أن شعر الطبيعة في الأندلس بدأ يبلغ ذروته في القرن الخامس الهجري وما تلاه من قرون،ففي هذا القرن بدأت الشخصية الأندلسية في فرض وجودها،وفي تلك الفترة كان الشعر في شبه فورة دافقة وجذوة متلألئة في عدة ميادين كان ألمعها آنذاك شعر الطبيعة،الذي بدأ في الخروج على مألوف الشعر العربي من حيث الابتعاد عن القصيدة إلا في حالات قليلة،فقد أخذ الشعراء يعمدون إلى المقطوعات التي تستوعب طاقة خيالهم،وتصور عطاء شاعريتهم،فقد أصبح الشعراء يبتعدون عن النظام التقليدي للقصيدة، ولا يهتمون بعدد الأبيات،وقد طرقوا شعر الطبيعة ببراعة ورشاقة وذكاء،وقد أصبح شعر الطبيعة في الأندلس يحل محل أبيات النسيب في قصائد المديح[44].

وبصورة عامة،ومن حيث الألفاظ والأساليب فقد «تميز الشعر الأندلسي بسهولة اللفظ،وسلاسة التراكيب،وما ذلك سوى أثر لسهولة طباعهم،ولين أخلاقهم،ورقة الطبيعة الأندلسية،وجمالها الفاتن،وأفقها العاطر الشفاف،وإرسالهم القول من غير تكلف أو تصنع ودون تحميل الألفاظ ما لا تطيق من المعاني المزدحمة،حتى جاء شعرهم جارياً مع الطبع،متساوقاً مع الفطرة،فضلاً عن أنهم لم يبالغوا في الأخذ بفنون البديع من تورية وجناس وطباق وغيرها،وما كان يقع لهم من ذلك في عباراتهم كان أكثره جميلاً مقبولاً،لأن الشعراء كانوا لا يأخذون من هذه الأنواع البديعية إلا ما كانت تجود به قرائحهم عن غير تعمل ولا إجهاد خاطر.

أما الخيال،فقد غلب على الشعر الأندلسي الخيال البديع،الذي نماه في ملكات الشعراء ضروب الجمال المنتشرة في شبه جزيرتهم،وساعدهم ذلك على أن يجودوا التشبيه،ويكثروا من استعمال المجاز والكنايات في شعرهم،ولا بدع فقد كانت الأندلس مسرح الخيال،بما ركب الله في طبيعتها من فنون السحر والجمال،لذلك أتى شعراء الأندلس منه بالعجب العجاب في أشعارهم،فلهم التشبيهات البديعية،والتوليدات العجيبة،والأخيلة الرائعة»[45].

ومن المظاهر التي تبرز التجديد والتميز في شعر الطبيعة بالأندلس الفتنة بالبحر،والتفنن في أوصاف المياه،إضافة إلى بروز النزعة القصصية في الكثير من قصائد وصف الطبيعة في الأندلس ، فالباحث الدكتور حسن أحمد النوش يُدرج شعر الطبيعة بالأندلس في الاتجاه المحدث الذي سار فيه في الشرق مجموعة من الشعراء من بينهم:الحسن بن هانئ،ومسلم بن الوليد،وأمثالهم من المجددين،وهذا الاتجاه هو الذي ثار على الاتجاه التقليدي،وندد بطريقته،وطرق أغراضاً جديدة لم تكن شائعة من قبل،وذلك بمنهج جديد،وأسلوب مبتكر،ويذكر الدكتور حسن النوش أنه « لا عجب لهذا الاتجاه المحدث في الشعر الأندلسي،وأن يجد ترحيباً من الأندلسيين ويصادف هوى في نفوسهم،لأسباب منها:أن نماذج الشعر المشرقي،التي تفتحت عليها عيون الأندلسيين أيام تكوّن شعر حقيقي عندهم،كانت تساق في هذا الاتجاه،على أن حياتهم كانت تتكئ على كثير من مستجدات الحضارة،حين راحوا يصيبون من طيبات الحياة ومتعها،في كثير من التحرر والانطلاق،من شراب وغناء وموسيقى،وما يتبع ذلك من مجالس اللهو،والمغامرات،ثم كان رد الفعل الطبيعي لهذه الحياة،أن يأخذ فريق منهم بالزهد وتبغيض الدنيا،والدعوة للتزود للآخرة والتنفير من المتع،وإشاعة احتقار الدنيا،وتذكر الموت.

ومن هنا كان كثير من الموضوعات الشعرية الاجتماعية تساق في إطار الاتجاه المحدث،المصور للحياة الجديدة في المجتمع الجديد،سواء في نزقه أو رشده »[46].

خامساً:ابن خفاجة بين التقليد والتجديد:

يُعرف ابن خفاجة بشاعر الطبيعة الأكبر في الأندلس،و قد لُقب بصنوبري الأندلس،ولذلك فلا يُمكن لأي دارس لشعر الطبيعة بالأندلس أن يتجاوزه،وهو الذي نهض بوصف الطبيعة في بلاد الأندلس نهضة واسعة، «اشتهر في عصره شهرة واسعة،وارتفعت مكانته الأدبية،ومكانته الاجتماعية،فصار مقصد الأدباء،وتهيأت له فرصة صداقة علية القوم من الوزراء والكتّاب،وطار له صيت في زمن المرابطين الذين عرفوا قدره فوفوه حقه،وقبلوا شفاعاته في أهل بلده ممن كان يفزع إليهم في ملم أو مهم،وفي ديوانه قصائد مديح وقصائد رثاء في أمراء المرابطين ووزرائهم وقضاتهم،ومباسطات وإخوانيات مع طبقة عالية من رجال المغرب والأندلس تدل على تلك المكانة وتلك العلاقات.

لقد رزق ابن خفاجة حساً مرهفاً،وذوقاً ممتازاً،وكانت عينه الباصرة،واهتماماته المتنوعة،وقدرته على النفاذ وسيلة قربت إليه الموصوفات،وسهلت دخول أشياء كثيرة في الحياة والكون إلى شعره،تلون ذلك الشعر وتصبغه،وتساعد على جلاء الفكرة،ولقد وصف الشاعر أشياء كثيرة مما يقع تحت نظر الإنسان أو في دائرة اهتمامه،وهو خصص للوصف قصائد ومقطوعات خاصة،إلى مجموعة من الأوصاف المختلفة لأشياء متنوعة من أدوات يستعملها أو يتزين بها،أو تقع في حيز الاهتمامات اليومية،كوصف السيف،والرمح، ووصف الأشياء والأحوال،وبعض(الأشخاص)وبعض الحيوانات الأليفة أو المتوحشة،مما يتصل بالطبيعة الحية والطبيعة الصامتة.فهو مثلاً وصف السيف والرمح وأنواع السلاح،وأدوات الكتابة،ووصف البخيل،والأسود،ووصف الفواكه بأنواعها،كما وصف الفرس،والكلب والذئب،والأسد،وضروب الطيور المختلفة وبخاصة(الحمام)منها،سواء كان ذلك الوصف مستقلاً أو في درج أغراض أخرى...

إن ابن خفاجة–في الحقيقة– أحب الطبيعة الجميلة التي كانت (شقر)مثالاً رائعاً لها،وأسقط عليها مشاعره،وسكب فيها ذاته،وقد ظهر في شعره أثر ذلك التوفر الدقيق الطويل ،وبدا فيه أثر المحبة والألفة في الالتفات إلى نقاط الجمال والروعة،وفي الركون إلى الطبيعة بالطبيعة، وإسقاط ما في نفسه عليها.ويحس قارئ شعره أنه ابن الطبيعة يشكو على كل حال،وفي قصائد ومقطوعات كثيرة مبثوثة في الديوان ظهر امتزاج الشاعر إليها،ويطرب لها،ويرى فيها أجمل ما في الوجود،وكان إذا استحلى أمراً حلا له في ظلالها وبين أفيائها ،وإذا أنس أو استوحش كان ذلك بمشاركة الطبيعة،وقد أحس الشاعر بهذا الذي نسم به شعره في وصف الطبيعة،فأعلن عنه بوضوح وبساطة»[47].

أ– مظاهر التقليد في شعر ابن خفاجة:

دأب الدارسون على تقسيم شعر ابن خفاجة إلى قسمين:

«1–إنتاجه في عصر الطوائف وهو إنتاج يتسم بالتغني بالطبيعة والحب،ويمثل المرحلة الأولى من حياته،ويظهر على مقطوعاته الشعرية هنا الاختصار،ليس ذلك لقصر نفس الشاعر،وإنما يعزى إلى عدم تكلفه وانطلاقه من سجيته وحدها.

2–إنتاجه في عصر المرابطين:عندما أصبح ابن خفاجة في عهد المرابطين شاعر بلاط كثر في شعره المدح بجانب بعض القصائد في الرثاء.

ويصادف المتأمل في شعر ابن خفاجة ضربين أسلوبيين،وُجدا جنباً إلى جنب عبر المرحلتين السابقتين،فهو بين محافظة وتقليد للقصائد العربية النموذجية من جهة،وتجديد وذاتية يعبر فيها عن شخصيته ورؤيته من جهة أخرى،فعبر صفحات من ديوانه تتمثل قصيدة مشرقية في الصور والأساليب وفي تقسيم القصيدة إلى مقدمة،يتخلص منها إلى الغرض الرئيس،فالمدح عنده مثلاً لا يبتعد عن مدح أي شاعر مشرقي لأميره،يبدأ بمقدمة غزلية (وإن استبدل بها أحياناً مقدمة في وصف الطبيعة)،ثم يتخلص إلى مدح فيغدق على الممدوح الصفات المعروفة ذاتها.

ولم يكن وراء هذا التقليد لأسلوب القصيدة العربية المشرقية دافع تلبية ذوق الممدوح واستمالته ليعجب بالشعر ويكافئ عليه،فابن خفاجة لم يكن شاعراً مرتزقاً بل كان الإعجاب بالمشارقة ومحبة شعرهم هاجسه في ذلك،فكأن تمثله لقصائدهم من باب التقدير والاحترام.

ومن جانب آخر،كان التجديد لا ينكر عن ابن خفاجة،الذي حفل أسلوبه بالتصوير،تصوير الطبيعة الغنية حوله،فكأني بابن خفاجة مصوراً محترفاً تلتقط عدسته صغائر البيئة ودقائقها،وتحيلها إلى لغة بارعة الصور والبيان،ويلفت النظر عنده لطائف أبدع التقاطها وتقديمها في ثوب تصويري حسن.

وإذا كان الوصف غرضاً مألوفاً،فإن وجه التجديد عند ابن خفاجة يكمن في تخصيصه،بمعنى أنه تعمق وتوسع فيه إلى درجة تؤهل للقول إنه شاعر وصافة من الدرجة الأولى،ونظرة واحدة في ديوانه تكشف حجم الوصف في شعره،فهو يصف كل شيء حوله»[48].

وبالنسبة إلى طريقته ومنهجه في كتابة الشعر ينبه الكثير من الدارسين إلى أن ابن خفاجة كان«على طريقة من سبقوه،يحتذي حذوهم،ويقلد فنهم،ويستكثر من البديع،فيطابق،ويجانس،ويستعير،ويلتزم

في مطولاته عمود الشعر،وشعره يتوزع بين أغراض عديدة،مديح ورثاء،وغزل ومجون،وهي أغراض تقليدية قال فيها الشعراء،وقال هو أيضاً،دون أن يزيد عليها شيئاً،بل انقص منها،فنحن لا نجد له سخراً ولا هجاءً،ولا فخراً،ومتى علمنا طبيعة الرجل أدركنا أنه لم يكن يحسن هذه الفنون من القول،أما أغراضه في مقطوعاته التي وصف بها الطبيعة،فهي صادرة عن نفس تحب التبذل،والعزلة،والهرب من واجبات الحياة،هذه الأمور التي لم يكن ينالها إلا في الالتجاء إلى أكناف الطبيعة،وعلى شواطئ غدرانها،وقد يكون ابن خفاجة أراد أن يتفرد بوصف الطبيعة عن بقية الشعراء،حين وجدها في عزلته مجاورة مجلسه،قريبة من نفسه،مستنيراً بالبحتري، وابن الرومي،والصنوبري،وقد يكون لاقى بعض الإعجاب من معاصريه،وهو يستكثر من المحسنات اللفظية،ويأتي بها في أثواب جديدة زاعماً أنه يفتتح في الشعر سنة حديثة،جاعلاً من الطبيعة غرضاً،ولكن هذا كله لا يجعله صاحب طريقة حديثة في الشعر،ولا صاحب غرض خاص،مادام وصفه للطبيعة ليس وصف الشاعر الذي استأثرت الطبيعة بحواسه ومشاعره،وإنما هو وصف الشاعر الذي جعل الطبيعة تكأة ومتفيئاً...

وابن خفاجة يكثر من المحسنات اللفظية،فيشبه،ويستعير،ويطابق،لا للتوضيح ولكن للتجميل،كأن ليس في الأشياء التي حوله جمال،فاستعار لها،وشبه بها»[49].

إن أول قضية طرحها ابن خفاجة في خطبة ديوانه بعد ديباجة التحميد والصلاة والتسليم على الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام،تتصل بالمكونات الثقافية للشاعر،فقد بدأ كتابة الشعر في سن مبكرة(والشباب يرف غضارة ويخف بي غرارة)،و لاشك في أن عملية الإبداع لا تقترن بسن معينة للإنسان،بيد أن توزيعها يكون مركزاً في سن مبكرة نسبياً،كما تشير إلى ذلك الكثير من الدراسات الحديثة «ويصارحنا ابن خفاجة بأسماء الشعراء الذين تصفح أشعارهم وحذا حذوهم وأخذ مأخذهم،الشريف الرضي،ومهيار الديلمي،وعبد المحسن الصوري،فتملكه من محاسن أشعارهم الرائعة،وألفاظهم الشائقة ما ينسجم مع برد الشباب،فمال إليهم ميلاً شديداً،وصار يروم التشبه بهم،فهل عنى حقاً ما يقول؟وإلى أي مدى استحوذ هذا الإعجاب على الشاعر؟لقد تمكن هؤلاء الثلاثة من الشاعر تمكناً كبيراً بعد أن نالوا نصيباً من إعجابه،ونجد في الديوان إشارات واضحة إلى ذلك فتابع الصوري متشبهاً به،محتذياً طريقته في تسع مقطعات وقصائد،وأشار إلى متابعة الشريف الرضي في قطعة واحدة،ومهيار الديلمي في قصيدتين،كذلك صرح في موضوع تال باحتذائه المتنبي في لف الغزل بالحماسة في أربع مقطعات،وراق له في موضع آخر النظر إلى بيت المتنبي فاحتذاه معارضاً،ونلاحظه يسلك مسلك ابن الرومي في موضوع ذم الورد،في مقطعة من بيتين،وهو في ذلك مواكب لأثر أبيات ابن الرومي التي تركت صدى بعيداً لدى شعراء الأندلس،وعكس هذا الصدى الحيميري في كتابه (البديع)،ويصرح في أشعاره بأنه يتخذ كبار الشعراء،ومشهور الأدباء مثلاً أعلى له...

ويرى الدكتور إحسان عباس أن ابن خفاجة انفرد في تأثره بالصوري في بناء القصيدة على الجناس الناقص،وإنه أول شاعر أندلسي يقتفي خطوات الرضي والديلمي في الإشارات إلى الأماكن النجدية والحجازية،وأول من أدرك منهم طريقة المتنبي في لف الغزل بالحماسة،ولم تقتصر ثقافة الشاعر الشعرية على هؤلاء النفر الثلاثة،إذ نجد في ثنايا الديوان والرسائل مضمنات لأشعار عدد من شعراء العرب،أمثال قيس

بن الخطيم،ويزيد بن الطثرية،ومجنون ليلى،وابن الدمينة،وأبي تمام،وأبي نواس،والفرزدق وآخرين،وله معارضات لعدد من الشعراء منهم ابن صارة الأندلسي،وابن الصائغ،وابن رشيق»[50].

ومن مظاهر التماثل في شعر ابن خفاجة أنه يتغنى بقدرته على خوض الغمرات لاقتحام الخدور،فظلال عمر بن أبي ربيعة تتضح في الكثير من أشعاره،من بينها قوله :

لقد جُبْتُ دون الحيَّ كل ثنية يحُومُ بها نسرُ السماء على وكرِ
وخضتُ ظلام الليل يسودُ فحمةً ودُستُ عرين اللَّيث ينظرُ عن جَمْرِ
وجئتُ ديارَ الحيِّ واللَّيل مطرقٌ منمنمُ ثوبِ الأفقِ بالأنجُم الزهر

و وصف اقتحام الخدر لا يقتصر على مجموعة من المعاني السطحية في الشعر الأندلسي،فقد تلفي في بعض الأحيان الشاعر الأندلسي يتجاوز الأهوال،وهذا يدل على أنه لا يقتصر فقط على لقاء المحبوبة، و تخطي الصعاب من أجلها، بل يتجاوز هذا الأمر إلى «معنى قدرته على تخطي صعاب الحياة،ومواجهته كل ما فيها من أهوال،ليصل إلى هوى النفس ومناها،فأمر الشعر لا يُفسر–في معظمه–على الوجه الظاهر فقط،ولا يعني الشاعر بتصوير اقتحام الخدر انتهاك الحرمات والأعراف،ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن إلحاح بعض الشعراء أحياناً على تصوير مغامراتهم،وتصوير ما يتعرضون له من أخطار في سبيل الوصول لم يكن في معظمه إلا انطلاقاً من افتخارهم بضروب شجاعتهم،وفتوتهم،واعتزازهم بعنفوان شبابهم،أكثر منه تعبيراً عن الخروج عن العفة،وخرق الأعراف،وهتك الحرمات...»[51].

وبالنسبة إلى الرثاء والمدح في شعره فقد كان ابن خفاجة يقول الشعر في مختلف المناسبات،و يُطلق عليه البعض اسم شاعر المناسبات،حيث يقول أحدهم في هذا الصدد: «كان ابن خفاجة يقول الشعر حين تعرض له مناسبة،أو يلم به حادث،فيمدح ويرثي،ويؤدي على مضض بعض واجباته الاجتماعية،ومدائحه ومراثيه قليلة،ولكنها بالنسبة لقصائده طويلة،وبالنسبة لطبيعته متعبة،وكان أكثر ممدوحيه فقهاء وقضاة،وبعض أمراء،وهم في أغلب الظن رفاق صباه وأيام دراسته،أو ممن تولوا مناصب في مقاطعته،أو ممن جمعهم على غير عمد مجلس شراب،أو ممن هم على طريقته في طلب الملذات،والذين رثاهم أقل ممن مدحهم،فهناك قصائد ثلاث رثى بها الوزير ابن أبي ربيعة،ورثى أم الفقيه أبي أمية بقصيدة،ورثى بعضاً من إخوانه في مقطوعات بعضها قصير جداً.

وبينما كانت الأحداث في الشرق والغرب تغير مجرى التاريخ،فتدول الدول،وتندك العروش،وتتساقط التيجان، كان ابن خفاجة يسير في الحياة على منوال واحد،فلا يسمح بتغيير مجراها،وقد تتصل تلك الأحداث من حروب ومعارك بأحد ممدوحيه،فيذكرها مفتعلاً الحماسة»[52].

ومن بين مراثيه المتميزة،تلك القصيدة التي يرثي فيها بعض أصحابه الذين رحلوا،ويبدو فيها في غاية الحزن والتأثر لرحيلهم،بعد أن كانوا رفقته يتجولون مع بعضهم البعض في الحدائق والرياض الغناء،يقول:

فإذا مررت بمعهدِ لشبيبةِ أو رسم دار للصديق خلاء
جالت بطرفي للصبابة عبرة كالغيم رقَّ فجال دون سماء
ور فعتُ كفِّي بين طرف خاشع تندى مآقيه وبين دعاء

وفي مدحه يُركز ابن خفاجة على العناصر التقليدية التي يمدح بها فيذكر الفطنة والبطولة والنسب والشهرة،مثل قوله عند مدح تميم:

ونالَ تميمُ سؤدد الكهل في الصّبي فتم تمام البدر في غُرَّة الشهر

وحلَّت به الأملاك وهي شريفة محل ليالي الصوم من ليلة القدر

لقد حضرت الطبيعة الصحراوية التي تبرز مظاهر التماثل في شعر ابن خفاجة بشكل جلي،و لا شك في أن حضور الصحراء والبادية عند الشعراء الذين يعيشون في كنفها هو أمر طبيعي،وعادي نظراً «لهيمنة البداوة على حياة العربي ومحيطه،فالشاعر الجاهلي ابن الصحراء،وطبيعة البادية في هذا الشعر هي وليدة تجربة الإنسان الجاهلي معها،وقد تبين فيها الباحثون علاقات مختلفة،أما في العصر الإسلامي فقد خرج العربي من صحرائه واستقر بأقطار مختلفة،وعرف الطبيعة الخصبة وصور له القرآن الكريم الكثير من وجوهها،وحدد له علاقته بها ونظرته إليها،وهذا من شأنه أن يغير الخيال الشعري عند العرب،إلا أن التغيير لم يكن كلياً،فالشاعر العربي لم يعزف عن طبيعة البادية وحياة البداوة،وظلت الطبيعة الصحراوية وحضارة الصحراء حاضرة في الشعر لا يكاد يخلو منها ديوان...،ولئن بدا الأمر بالنسبة إلى شعراء المشرق غير مثير-لقرب الصحراء منهم،ولإمكانية تردد بعضهم عليها،وإن هم كانوا يعيشون في الحواضر-فإن الأمر بالنسبة إلى الأندلس،قد لفت انتباه الباحثين،فأوعزوه إلى نزعة التقليد في الأدب الأندلسي،ورأى فيه بعضهم ظاهرة مقيتة في هذا الأدب،فالمحيط خصب وجنان،والشاعر الأندلسي يتزود في تركيب خياله الشعري من طبيعة البادية الصحراوية وحضارتها،والطبيعة الخصبة لم تحل محل الطبيعة الصحراوية الجذبة في القصيدة إلا نادراً،وهذه مفارقة تدعو إلى البحث في طبيعة حضور عناصر الطبيعة الصحراوية في الشعر الأندلسي،والتساؤل عن وظيفتها ودواعيها ومدى مساهمتها في تكوين الخيال الشعري في الأدب الأندلسي»[53].

وقد وضع الباحث الدكتور سليم ريدان جدولاً أبرز فيه عناصر طبيعة الصحراء في ديوان ابن خفاجة،وقد توزع الحضور على العناصر التالية:

-المكان: -اسم مشترك:12،-اسم علم:25

-الحيوان:16،النبات:14، المناخ:3 المجموع:70.

فمجموع هذه العناصر-كما يرى سليم ريدان-لا يمثل من معجم « طبيعة الصحراء إلا القليل،وذلك بالنسبة إلى ما يمكن استخراجه من أي ديوان لشاعر جاهلي،فهذه العناصر هي ما ترسب في ذاكرة الشاعر الأندلسي من ممارسة الشعر الجاهلي وثقافة البادية في مشاغله الثقافية،لأن ابن خفاجة لم يعرف الصحراء بالتجربة،لكن هذه العناصر تتكرر في القصائد والقطع الشعرية،و يتكثف حضورها في مواطن دون أخرى،وهو ما يلفت الانتباه إليها في شعر ابن خفاجة،بالإضافة إلى ما يعضدها من عناصر حضارة الصحراء،ويحتل اسم المكان أكبر نسبة من هذا الحضور (أكثر من نصف المجموع)ويتميز اسم العلم منه بنسبة حضور مرتفعة(أكثر من ثلث المجموع)،وأكثر أسماء المكان العلم استعمالاً(نجد وتهامة و اللوى)وأكثر أسماء الحيوان

استعمالاً(الظبي)،وأكثر عناصر النبات تردداً: (الأراك،و العرار)،فكيف تتوزع هذه العناصر فيما بين النصوص؟وما هي أنماط حضورها فيها؟

احتوى الديوان على إحدى وعشرين قصيدة مركبة منها عشرون تكثف فيها حضور عناصر الطبيعة الصحراوية،ويبدو من تكرار أرقام القصائد في الجدول أن حضور هذه العناصر يتراوح بين ثلاثة وثلاثة عشر عنصراً،ومعظم هذه القصائد قد احتوت أكثر من ثلاثة عناصر.

ويحتوي الديوان على خمس وستين قصيدة بسيطة لم تحضر عناصر طبيعة الصحراء إلا في اثنين وثلاثين قصيدة منها،وكان حضورها على النحو التالي:

-ثمانية قصائد يتراوح فيها عدد هذه العناصر بين ثلاثة وستة

-ست قصائد احتوت كل منها عنصرين اثنين

-ثماني عشرة قصيدة احتوت عنصراً واحداً.

فحضور طبيعة الصحراء في القصيدة البسيطة أقل بكثير من حضورها في القصيدة المركبة.

أما القطع الشعرية فعددها في الديوان مائتان وثلاثون قطعة،لم يكن حضور طبيعة الصحراء إلا في ثلاث وعشرين منها أي العُشر،وتراوح عدد العناصر في ستة منها بين اثنين وثلاثة عناصر،واحتوت كل قطعة مما بقي عنصراً واحداً.

ويبدو من كل هذه الملاحظات كأن حضور طبيعة الصحراء من مستلزمات القصيدة المركبة،بينما هو في القصيدة البسيطة والقطعة الشعرية عرضي ومحدود»[54].

وفي أحايين كثيرة نلفي ابن خفاجة يذكر «اللِّوى في معرض تغنيه بمحاسن الطبيعة،حيث يظهر الغدير والظل فوقه كحسناء لها طرة فوق جبهتها تزينها،وهنا تشبيه عكسي،فقد شبه الغدير بالمرأة الحسناء،وليس العكس،وهو مما أبدع فيه ابن خفاجة،حيث يسبغ على الطبيعة صفات الأنوثة والدلال،فهذا الماء(بمنعرج اللوى)يهتز فوقه الأيك حين تحركه نواسم الريح الربيعية الذكية،وهنا وجدنا ابن خفاجة في معرض وصفه للطبيعة الموضوع الذي اشتهر به لا ينسى أن يرمز إلى حنينه لهذا المكان،و هذه الذكرى(بمنعرج اللوى)،ولعل هذا ما قصده حين علق على إحدى قصائده في ديوانه بقوله: (إنها خيالات تنصب)،إذ يقول: (وأما أسماءً تلك البقاع وما انقسمت إليه من صفة نجد أو قاع فإنما جاء بها على أنها خيالات تنصب،ومثالات تضرب،تدل على ما يجري مجراها،من غير أن يُصرح بذكراها،توسُعاً في الكلام، يكتفي بها دلالة عليها عبارة،ويستحسن إيماءة عليها وإشارة).

فأشار ابن خفاجة بذلك إلى أن الأماكن النجدية والحجازية قد تذكر في الشعر،ويراد بها أخرى،مما دل على تكثف الرمز فيها،يقول ابن خفاجة:

وإنِّي وإن جئت المشيب لولعٌ بطرَّة ظلٍّ فوق وجهِ غديرِ
فيا حبَّذا ماءٌ بمنعرجِ اللِّوى وما اهتزَّ من أيكٍ عليه مطيرِ
ونفحةِ ريحٍ للرَّبيع ذكيَّةٍ ولمحةِ وجهٍ للشَّباب نضيرِ

إنه شيءٌ من جولان المشاعر وتطوافها في أرض الأجداد،حيث النقاء والصفاء،والحب العذري،والعذوبة،لقد اتخذت هذه الأماكن رمزيتها خارج نطاقها الجغرافي،وأصبحت بما تدل عليه من موطن قديم لحياة البادية عاشها الأندلسي بخياله عالماً رحباً،وذكرى حية،تحمل سحر الماضي البريء وعبقه،مما يجعل النهر يعود إلى ينبوعه ومصبه،ويتغنى بعراقة المشاعر ونقائها»[55].

وقد ارتبط الشوق والحنين في مجموعة من أشعار ابن خفاجة بالأرق، «الذي يستدعي التأمل في السماء،فيشوقه منها وميض الغمام ولمعانه من جهة ديار المحبوبة،وما تجدر الإشارة إليه أن شعراء الأندلس أكثروا في نسيبهم البدوي من وصف لمع البرق وإيماضه،وهو من خالص بيئة البداوة،لما في شوم البرق عند البدوي من وعد بهطول الأمطار،وسقيا الأرض،وقد أكثر الشعراء من وصف هذا البرق ولمعه في الشعر الجاهلي وما بعده،حتى في الأندلس حيث لم تكن البيئة في معظمها صحراء كما كانت في الجزيرة العربية،ولكن يظل للمطر عند العربي قيمته الكبيرة في النفس والشعر،ففيه معاني الخصب والنماء والعطاء،والإرواء والجمال،يقول ابن خفاجة:

أَرِقتُ وَقَد نامَ الخَلِيُّ لِنازِحٍ تَشَظَّت حَصاةُ القَلبِ في حُبِّهِ صَدعا
وَما شاقَني إِلا وَميضُ غَمامَةٍ تَطَلَّعَ مِن نَجدٍ فَحَيّا اللِوى رَبعا
أَشيمُ سَناهُ وَالسَماءُ مُغيمَةٌ كَما اِغرَورَقَت عَيني لِرُؤيَتِهِ دَمعا
فَذَكَّرَني وَاللَيلُ يَندى جَناحُهُ بِمَعطِفِهِ خَفقاً وَمَبسِمِهِ لَمعا
وَمَسحَبِ ذَيلٍ لِلسَحابِ بِذي الغَضا بَرودِ رُضابِ الماءِ أَحوى لِمى المَرعى
فَقُل في أَتِيٍّ قَد تَهادى كَأَنَّهُ إِذا ما ثَنى أَعطافَهُ حَيَّةٌ تَسعى

فابن خفاجة يبدأ قصيدته بمقابلة بين أرقه هو،ونوم صاحبه،وهو المعنى الذي يكثر في الشعر الجاهلي،وهو يعطينا العلة التي بسببها أرق هو ونام صاحبه الذي وصفه بالخليّ،أي خالي القلب من الحب،بينما هو يأرق(لنازح)بعُد عنه،ويقصد به المحبوبة التي رحلت فصدعت قلبه،وهو يقول في وصف هذا القلب(حصاة القلب)،ولا يعني بذلك وصف قلبه بالقسوة أو الغلظة،وإنما أراد التعبير عن شدة الأسى والوجد الذي جعل هذا القلب يتصدع ويتشعب،ولذا،فهو يتطلع إلى السماء التي يشوقه منها لمع البرق وإيماضه،وقد قال(أشيم سناه والسماء مغيمة)على العادة البدوية فشم البرق أي نظر إليه أين يقصد وأين يمطر،وهو الأمر الذي كان البدوي يترقبه،وتحتاج إليه صحراؤه،وهو هنا يتطلع إليه ليروي ظمأ عشق فاض به،فشومه البرق،واستمطر الدمع شوقاً لمن يُحب»[56].

ب- مظاهر التجديد في شعر ابن خفاجة:

يلاحظ المتأمل في الشعر الأندلسي ذلك المزج بين الغزل وشعر الطبيعة،وهذا يعتبر من مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي،فهذا الأمر غير معهود بكثرة لدى الشعراء المشارقة، «ولم يكن الشاعر الأندلسي يُشرك الطبيعة في حبه ولحظات هناءته فحسب،بل كان يشركها أيضاً في أوقات محنته بمصائب الدهر،وما ينزل به من الهموم.

ولعل بلداً عربياً لم يُكثر من تشخيص عناصر الطبيعة على نحو ما أكثرت الأندلس،فدائماً تتراءى لشاعرها تلك العناصر أشخاصاً ناطقة تملك عليه حواسه،وتملأ عليه قلبه وعقله،لا مع الانتشاء فحسب،بل أيضاً مع العظة والتفكير في الزمن وحقائق الحياة والموت، على نحو ما يصور ذلك ابن خفاجة في استنطاقه الجبل بقصيدته المعروفة،فقد صور على لسان الجبل من آووا إليه من مجرمين عاصين وتقاة صالحين ورواحهم عنه وفناءهم وبقاءه وحده ملتاعاً،بل باكياً نادباً مصير الناس وما ينتظرهم من الموت والهلاك... ،وعلى هذا النحو يروعنا دائماً الشاعر الأندلسي في تصويره لعناصر الطبيعة وما يبث فيها من المشاعر والأحاسيس كما يروعنا شغفه بحسنها وجمالها،وكثيراً ما يعرضها في أصداف التشبيهات والاستعارات»[57].

ويتجلى التشخيص في الكثير من قصائد ابن خفاجة فهو على سبيل المثال يرى الشباب عبارة عن ماء رقراق:

من كل أزهر للنعيم بوجهه ماء يرقرقه الشباب فيسكب

ويراه عبارة عن وجه باسم:

توضح في وجه الصبا منه مبسم وأشرق في ليل من الشيب كوكب

والشباب ريان أخضر:

وتملكته هزة في عزة فارتج في ورق الشباب الأخضر

والشباب مكان لا يبلغه النجم:

ولقد حللت مع الشباب بمنزل يرتد طرف النجم عنه كليلا

و الشباب ظلال وارفة:

وشمس كلألاء الزجاجة طلعة وظل كريعان الشبيبة وارف

والشباب ريح رخاء:

وجدت به ريح الشباب لدونة ودون صبا ريح الشبيبة أزمان

والشباب عرش رفيع:

ألا ثل من عرش الشباب وثلما لشيب تصدى هدَّ ركني وهدماً[58].

ولا ريب في أن اتكاء الشاعر ابن خفاجة على عنصر الطبيعة في تصوير هواجسه ومشاعره وإبراز مختلف حالاته النفسية،كانت سبباً في تفوقه التعبيري،وإشراقاته الفنية،وإجادته في الوصف، حيث إن الكثير من قصائده تبرز فيها جملة من الصور والأخيلة التي تستمد جمالياتها الراقية،وشعريتها الطافحة من الطبيعة الأندلسية.

لقد أبدع ابن خفاجة أيما إبداع في وصف الطبيعة حتى سماه الأندلسيون «الجنان»،نسبة إلى جنان الأندلس التي أبدع في تصويرها،وقد علل هذه النزعة في شعره،بقوله: «إكثاره في شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجرية ماء ورنة طائر،ما هو إلا (إما)لأنه كان جانحاً إلى هذه الموصوفات لطبيعة فُطر عليها وجبلة،وإما لأن الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره،وحسبك من ماء سائح،وطير صادح،وبطاح عريضة وأرض

أريضة،فلم يعدم هنالك من ذلك ما يبعث مع الساعات أنسه،ويحرك إلى القول أنسه،حتى غلب عليه حب ذلك الأمر،فصار قوله فيه عن كلف لا تكلف،مع اقتناع قام مقام اتساع فأغناه عن تبذل وانتجاع ».ومن قوله في وصف روض صباحاً:

وكِمامة حَذرَ الصباحُ قِناعها عن صَفْحَةٍ تَنْدَى من الأزهارِ
في أبْطحٍ رَضعتْ ثغورُ أقاحِهِ أخْلافَ كلِّ غمامةٍ مِدْرارِ
وحللتُ حيث الماءُ صفحةُ ضاحكٍ والطّلُ ينْضحُ أوْجُهَ الأشجارِ
متقسِّم الألحاظِ بين محاسنٍ من رِدْفِ رابيةٍ وخَصْر قرارِ

والصور تتراكم في القطعة،فالصباح يكشف قناع الظلام عن الأكمام فتبدو أزهارها الندية،وثغور الأقاح ترضع من أخلاف الغمام الدار والماء يضحك والطل يرش أوجه الأشجار،وألحاظه موزعة بين النظر إلى ردف جميل بأزهاره لرابية وخصر بديع برياحينه لقرار...

وواضح ما يتميز به شعر الطبيعة عند ابن خفاجة من بث العواطف والمشاعر في عناصر الطبيعة،بحيث يصبح لكل عنصر أحاسيسه التي يشترك بها مع غيره من العناصر،وتتراكم هذه الأحاسيس في شعره وتتراكم معها تصاوير الطبيعة،مما جعل بعض الأندلسيين من موطنه يعيب عليه كثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد،وهي ليست كثرة معان إنما هي كثرة تصاوير،وهي ليست عيباً بل هي حسنته وفضيلته،إذ أحس بعناصر الطبيعة إحساساً عميقاً،وهو إحساس تفرد به لا بين شعراء الأندلس وحدهم بل بين شعراء العربية جميعاً،بحيث يعد أكبر شعراء الطبيعة عند العرب في مختلف عصورهم،وجعله إحساسه ينقل أوصافها إلى المديح والرثاء»[59].

وقد تساءل الدكتور جودت الركابي:ما هي المظاهر الطبيعية التي وصفها وما ميزاته فيها؟ وأجاب بقوله:«لقد وصف الشاعر(ابن خفاجة) الطبيعة بجميع مظاهرها ومباهجها،فوصف الطبيعة الصامتة برياضها وأشجارها وأزهارها وأنهارها وجبالها ومفاوزها وسمائها ونجومها،وما يتصل بذلك كله من نسيم ورياح وأمطار،وكان الشعور الغالب على هذا الوصف المرح والبشر إلا ما كان من أمر وصفه للجبل إذ ساده التأمل والنظرة الحزينة.ووصف أيضاً الطبيعة الحية كالفرس والذئب وبعض الطيور،وهكذا فقد كانت الطبيعة مستولية على حواسه،ولم يستطع أن ينساها حتى في أغراضه الأخرى،فتوثقت الصلة بينه وبينها،فأخذ يشعر بالبشر يحيط به عندما يحل في مغانيها،وإذا بها ذات جمال ودلال وبهاء.

ويمكننا أن نلخص ميزاته في وصف الطبيعة في العناصر الآتية:

1-اتصاله بالطبيعة وإشراك حواسه بها،فقد خاطب الشاعر الطبيعة وامتزج بها في بعض قصائده،واتصل بها اتصال الصديق بالصديق،ولجأ إليها واستمع إلى عظاتها في رحابها،وقصيدته في وصف الجبل خير شعره الذي يمثل هذه الخاصة.فقد أثار مرأى الجبل في نفسه عاطفة إنسانية جعلته يبعث في هذا الطود المنتصب رعشة الحياة،فأخذ يستمع إلى عظاته وعبره،ويترجم له أفكاره وحسه،وبدا الجبل شيخاً وقوراً متململاً من طول بقائه وهو يشاهد مواكب الإنسانية تمر وتمضي ويطويها الزمن.

2-الطبيعة عند ابن خفاجة ضاحكة طروب،هي مسرح للهو ومقصف للشراب،ولذا فقد هتف ابن خفاجة بالخمر في جو الطبيعة المشرق الجميل،فلنسمعه يصف هذه الحديقة الراقصة لنرى أن الطرب والرقص والغناء وسمات الحسن هي قوام هذا الوصف ،وأن الخمر ظل ضئيلاً في هذا الوصف للطبيعة اللاهية:

وَصَقيلَةِ الأَنوارِ تَلوي عِطفَها ريحٌ تَلُفُّ فُروعها مِعطارُ
عاطى بِها الصَهباءَ أَحوى أَحوَرٌ سَحّابُ أَذيالِ السُرى سَحّارُ
وَالنورُ عِقدٌ وَالغُصونُ سَوالِفٌ وَالجِذعُ زَندٌ وَالخَليجُ سِوارُ
بِحَديقَةٍ ظَلَّ اللِمى ظِلا بِها وَتَطَلَّعَت شَنَباً بِها الأَنوارُ
رَقَصَ القَضيبُ بِها وَقَد شَرِبَ الثَرى وَشَدا الحَمامُ وَصَفَّقَ التَيّارُ
غَنّاءَ أَلحَفَ عِطفَها الوَرَقُ النَدي وَالتَفَّ في جَنَباتِها النُوّارُ
فَتَطَلَّعَت في كُلِّ مَوقِعِ لَحظَةٍ مِن كُلِّ غُصنٍ صَفحَةٌ وَعِذارُ

ومثل هذا الجو نجده في وصف هذه الأراكة الحسناء التي ضربت ظلها فوق هذا الجمع الطروب بجوار جدول نثرت عليه الأزهار ودارت حول ضفافه كؤوس خمر عروس فاجتمعت في هذه الروضة فتنة الطبيعة ونشوة الطرب:

وأراكة ضَرَبَتْ سَماءَ فوقنا تَنْدَى،وأفلاكُ الكؤوس تُدارُ
حَفَّت بدوحتها مجرَّةُ جدول نَثرت عليه نجومها الأزهارُ
وكأنها وكأن جدول مائها حسناءُ شُدَّ بخصرها زُنَّار
زف الزجاجُ بها عروسَ مُدامة تُجْلَى ونُوَّار الغصون نِثار
في روضةٍ جُنْحُ الدجى ظِلٌّ بها وتجسَّمت نَوراً بها الأنوار

وتستهوي الشاعر شجرة نارنج مثمرة فيصفها،فإذا بها في حلة بهية،وإذا الأوصاف الحسية تندمج بما يبعث فيها من حركة وحياة،وإذا الطبيعة التي تحيط بها مرحة مغردة،يخطب فيها الطير،وليس علينا بعد من عذر إذا لم نمل طرباً في أفياء هذا الدوح الظليل الرطيب:

أَلا أَفصَحَ الطَيرُ حَتّى خَطَب وَخَفَّ لَهُ الغُصنُ حَتّى اِضطَرَب
فَمِل طَرَباً بَينَ ظِلٍّ هَفا رَطيبٍ وَماءٍ هُناكَ اِنثَغَب
وَجُل في الحَديقَةِ أُختِ المُنى وَدِن بِالمُدامَةِ أُمِّ الطَرَب
وَحامِلَةٍ مِن بَناتِ القَنا أَماليدَ تَحمِلُ خُضرَ العَذَب
تَنوبُ مورِقَةً عَن عِذارٍ وَتَضحَكُ زاهِرَةً عَن شَنَب
وَتَندى بِها في مَهَبِّ الصَبا زَبَرجَدَةٌ أَثمَرَت بِالذَهَب

3-هذه الحياة التي شعت في الأمثلة السابقة تسم أكثر أوصاف الطبيعة عند ابن خفاجة.فهو يشخصها ويرى في جمالها جمال المرأة ويصورها على نحو إنساني تملؤه الحركة والنشاط.ولهذا التشخيص أمثلة كثيرة في شعره،فلنسمعه يصف شجرة منورة:

يا رُبَّ مائِسَةِ المَعاطِفِ تَزدَهي مِن كُلِّ غُصنٍ خافِقٍ بِوِشاحِ
مُهتَزَّةٍ يَرتَجُّ مِن أَعطافِها ما شِئتَ مِن كَفَلٍ يَموجُ رَداحِ
نَفَضَت ذَوائِبَها الرِياحُ عَشِيَّةً فَتَمَلَّكَتها هِزَّةُ المُرتاحِ
حَطَّ الرَبيعُ قِناعَها عَن مَفرِقٍ شَمَطٍ كَما تَرتَدُّ كاسُ الراحِ
لَفّاءُ حاكَ لَها الغَمامُ مُلاءَةً لَبِسَت بِها حُسناً قَميصَ صَباحِ
نَضَحَ النَدى نُوّارَها فَكَأَنَّما مَسَحَت مَعاطِفَها يَمينُ سَماحِ

4-وفتنة الشاعر هي على الأغلب في الرياض والزهور ولهذا لقب ب «الجنان»،ويعتمد على التشخيص-كما رأينا-والتشبيه بمحاسن المرأة في إظهار محاسن روضياته،وقد يقف عند بعض الجزئيات فيها،ولكن كثيراً ما تظهر روضياته في إطار من اللهو على شكل نزهات في رحاب الطبيعة التي يبدع في تجسيمها أيما إبداع، على أن روضياته تتشابه فهي محصورة في إطار واحد تمثله الحديقة بما فيها من أشجار وجداول وأزهار وظلال وارفة وحمائم تتداعى ونسمات عليلة وندامى يشربون ويغنون ويطربون.

5-وقد وصف ابن خفاجة الطبيعة الحية كالفرس والذئب وله في وصف الفرس أبيات تتراءى فيها البراعة والجدة في التصوير،فيقول:

وَمُطَهَّمٍ شَرِقِ الأَديمِ كَأَنَّما أَلِفَت مَعاطِفُهُ النَجيعَ خِضابا
طَرِبٌ إِذا غَنّى الحُسامُ مُمَزِّقٌ ثَوبَ العَجاجَةِ جيئَةً وَذَهابا
قَدَحَت يَدُ الهَيجاءِ مِنهُ بارِقاً مُتَلَهِّباً يُزجي القَتامَ سَحابا
وَرَمى الحِفاظُ بِهِ شَياطينَ العِدى فَانقَضَّ في لَيلِ الغُبارِ شِهابا
بَسّامُ ثَغرِ الحَلي تَحسِبُ أَنَّهُ كاسٌ أَثارَ بِها المِزاجُ حَبابا

6-يتبين مما تقدم أن ابن خفاجة يمثل نهضة شعر الطبيعة في الأندلس،وقد استطاع أن يصور طبيعتها الجميلة،والحياة اللاهية في أحضانها،وكان في وصفه مصوراً بصرياً بارعاً يعتمد على دقة ملاحظته إلى جانب قوة خياله.وقد يكون قد أغرق في الصنعة والمحسنات البديعية،ومع ذلك استطاع ألا يجعلنا نشعر بثقلها إلا في بعض أوصافه،على أن الصنعة عنده أداة للتجميل،وقد امتزجت بقوة خياله وأناقة ألفاظه وترف صوره فجاءت مقبولة.

وابن خفاجة من الشعراء الذين اتصلوا بالطبيعة كما أشرنا،ولكن هذا الاتصال لم يبلغ مبلغ الامتزاج الكلي بها إلا في بعض قصائده ولاسيما قصيدته في وصف الجبل، وتبقى الطبيعة عنده صورة لاعتدال القد واهتزاز الخصر وابتسام الثغر،وهي في صورها ترضي لذة الحس وقلما تبعث في النفس لذة الروح.وشأن شاعرنا فيها كشأن باقي أعلام شعراء الطبيعة في أدبنا العربي،فهم لم يلجئوا في وصفها إلى إدراك حس الطبيعة كما أدركه الشعراء الغربيون،وإنما بقيت الطبيعة عندهم متاعاً للعين وفناً وصفياً تجمله الزخارف والألوان ولا تتشابك فيه العواطف والأحزان إلا نادراً»[60].

وكما يرى الباحث محمد حسن قجة فابن خفاجة بلغت عنده صورة الحدائق ذروتها،ويصفه بسيد شعر الطبيعة في الأندلس،ويؤكد على أنه رغم أناقته في اختيار الألفاظ،لا يهمل المعنى المنتقى ببراعة الفنان ذي العين النفاذة والذوق الرفيع،ومن أبرز مظاهر التجديد عنده قدرته الفائقة على التشخيص، فهو يرى في قصيدته التي مطلعها:

وَصَقيلَةِ الأَنوارِ تَلوي عِطفَها ريحٌ تَلُفُّ فُروعُها مِعطارُ

يرى الحديقة فتاة بارعة الجمال تتلفت فتوزع عطرها الباهر مع النسمات،وهو يرى نور الضحى في الحديقة كأنه عقد في صدر الفتاة وأغصان الأشجار سوالفها، والجذع زندها،وجداول الماء سوارها،أما ظل الحديقة فتخاله لمى الثغر و الضياء بجانبه بريق الأسنان الناصعة،إننا نقرأ الصورة الجميلة لابن خفاجة فلا ندري أهو يتحدث عن امرأة يشبهها بالحديقة،أم عن حديقة يشبهها بالمرأة،ولا يتوقف ابن خفاجة عند الحديقة بل يدخلها ويخص واحدة من أشجارها بوصفه الساحر المبدع[61].

ولم يلتفت الكثير من الدارسين إلى شعر الحنين عند ابن خفاجة،فقد درسوه بصفته شاعراً بارعاً في وصف الطبيعة،وأغفلوا شعر الحنين والغربة عنده،فقد كان ابن خفاجة شاعراً مضطرم العاطفة ومرهف الحس،وسريع التأثر والانفعال،وكان محباً لوطنه (الأندلس) ولجزيرته (شقر)،كما ظل مرتبطاً بأصدقائه،وكثيراً ما يعود إلى أيام صباه وطفولته،و كما عبر عن هذا الأمر الباحث محمد رضوان الداية فقد كان مشغولاً بدائرتين اثنتين متشابكتين:دائرة المكان ودائرة الزمان،أما دائرة المكان فإطارها شقر والأندلس،وأما دائرة الزمان فإطارها الصبا وأيام الشباب،ويجتمع لديه الحنين إلى الوطن بالحنين إلى الشبيبة،ويقترن بمجموعة من الذكريات،وهو يركز بشكل كبير على من فقدهم،وتميز شعر الحنين لديه بالرقة واللطافة،وبساطة المعاني وروعة نزعاتها الإنسانية،وقد كانت نزعة الحنين لديه نزعة عارمة،وشكلت عنصراً أساسياً من عناصر شخصيته الخاصة التي تتسم بالرقة.

وهذه الإشكالية التي تكتسي أهمية بالغة في شعره نبهت إليها الدكتورة فاطمة طحطح،وتساءلت في مستهل دراستها «لسنا ندري ما الذي حدا بمعظم الدارسين إلى اعتبار ابن خفاجة شاعر الطبيعة الأول،الذي يتغنى بوصف الأزهار و الرياض وصفاً مرحاً مشوقاً،نحن نوافقهم فيما يخص المقطوعات وبعض القصائد القصيرة التي نظمها أيام الشباب،يوم كان يعتبر الشعر زينة وحلية،لكنه عاد فقرر في المقدمة أن أهم ما يلح عليه هو:التلذذ بذكر الديار،وبكاء المعاهد،والحنين إلى الشباب،وقد فعل ذلك في قصائد مطولة تشكل القسم الأكبر من ديوانه،وفيها وصف الطبيعة بوصف آخر مغاير ورآها رؤية مختلفة عن الأولى.

لكن أحداً لم يهتم بهذا الموضوع،الذي يلح عليه هذا الشاعر،وذكر سبب تعلقه به،واستشهد عليه بأمثلة عديدة من شعره،فابن خفاجة يأبى إلا أن يعتبر نفسه شاعر حنين وندب وبكاء لمعاهد الشبيبة،ومع ذلك يأبى الدارسون إلا أن يجعلوه شاعر الأطيار المغردة،والأزهار المتفتحة والرياض الضاحكة»[62]

وقد لاحظ الدكتور يوسف عيد أن «صورة الليل تتكرر في معظم قصائده الغزلية وتكاد جميعها تتشابه وتقترن بصورة الصباح،فلا تفرق بين الأسود والأبيض إلا حسياً والنور والظلمة ذلك أن ابن خفاجة كان في غزله وصفياً بعيداً عن الخيال الجامح قريباً من الفطرة ميالاً إلى المحسوس المعاش والمألوف.

وعناصر الطبيعة لا تنتهي في شعر ابن خفاجة،فهناك الطيور والبرق والجو والشمس والبدر وغيرها. وقد استطاع ابن خفاجة أن يصور حدائق الأندلس بعيون الحسناوات اللواتي تغزل بهن ،فأصبحت قصائده بمثابة وثائق تاريخية نقلت لنا بأسلوب خاص ومميز الجو الغزلي المطعم بمختلف أنواع الجواهر الطبيعية والوصفية وثقافة البيئة الأندلسية،فتجلت هذه الوثائق والصور في الاستعارات التي أغدقها في شعره،ومزجه في كل بيت أكثر من عنوان بلاغي،فنحن نراه في بيت واحد يشخص ويقابل،ويوازن،وفي بيت يليه يراعي النظير،ويبرز لنا حركية جميلة داخل البيت تجعلنا نسمو معه بالشعور الذي يريد إيصاله،فبقوله مثلاً:

له نظرٌ فاترٌ،فاترٌ يحلّ قوى عزمتي ضعفه

نرى في هذا البيت كيف أنه قابل بين القوة والضعف،وكيف أنه استعار للنظر اسم الفاعل(فاتر)المختص بالمياه فقرب الصورة ما بين ماء العين في نظرة الحبيب والماء الفاتر.

وفي بيت آخر نلاحظ كيف أنه يراعي النظير بحشد مفردات تدخل في الحقل المعجمي للكتابة بقوله:

أطلّ وقد خطّ في خدّ من الشعر،سطرٌ دقيق الحروف

من خلال دراسة قصائد ابن خفاجة الغزلية يستطيع الدارس أن يخرج بأفكار كثيرة تتمحور حول هذا الغزل الغني والمعلق بالروائح الذكية للطبيعة الأندلسية،و بالجو المطعم بالمنطق الفلسفي والمنحى الديني والحكمي الذي ظهر أيضاً من خلال أبيات القصائد الغزلية»[63]

وحضور الطبيعة الخصبة في ديوان ابن خفاجة،-وفق منظور الدكتور سليم ريدان- لم يخرج عن ثلاثة أنماط رئيسة:

«1-أن تكون موضوعاً من مواضيع القصيدة،شأنها شأن الغزل والرحلة وموضوع الخمر،وهو قليل.

2- النمط الثاني من حضور الطبيعة الخصبة في القصيدة هو أن تكون إطاراً يتلاءم مع الحال الشعرية التي يرسمها الشاعر،فتبدو الطبيعة يانعة مبتهجة في حالة الفرح متجهمة في حالة الحزن وهو قليل في القصائد المركبة.فمن ذلك أن تبدو الطبيعة على هيئة كأنما تستمدها من صفات الممدوح أو هي مبتهجة بقدومه.

3-أما النمط الثالث من حضور الطبيعة الخصبة في القصيدة فأن تكون أسلوباً من أساليب البلاغة كالتشبيه والاستعارة،وهو أكثر الأنماط الثلاثة وجوداً »[64]

لقد كان ابن خفاجة شديد الارتباط بواقع بيئته الأندلسية وهذا الارتباط يعد مظهراً من مظاهر التجديد لديه،فالشعر باعتباره تعبيراً عن الهواجس الذاتية كان لصيقاً بتجاربه النفسية،وقد استطاع « ابن خفاجة أن يمازج بين طبيعة الصحراء وطبيعة الأندلس،فتخصب الأولى أحياناً وينال الإبداع الشعري منها شعرية القدم،ويلتقي ما للشاعر بالتجربة بما له بالثقافة،ويلتحق الفرع بالأصل،ويتحقق الانتماء إلى الأمة بالاتصال بأرضها في مستوى الفن وإن هو تعذر في مستوى الواقع.

لكن الطبيعة الخصبة قد هيمنت على تجربة ابن خفاجة الشعرية عامة فاستقلت موضوعاً موحداً في قصائد وقطع،وابن خفاجة لم يتفرد بذلك،فقد سبقه إليه شعراء مشارقة أبرزهم الصنوبري،فاشترك معهم في الكثير من أساليب التعامل الفني مع الطبيعة،لكنه اختلف عنهم في رسم الصورة الكلية فكان موصوفه غير

موصوفهم،ولو كان واحداً،ذلك لأنه تميز عنهم في أهم مصادر الإلهام،وهو طبيعة أندلسية خصبة تختلف في كثير من خصائصها عن طبيعة المشرق العربي...،وأهم هذه الخصائص غزارة المياه وكثافة الخصوبة،واعتدال المناخ،وهو ما جعل صورة الأندلس ترتسم كلياً في خيال الشاعر في صورة الجنة،وتسربت إلى خيال الشاعر في تشخيصه الطبيعة ملامح ثقافة أندلسية قديمة هي التي أنجبت بعض خرجات الموشح.فتجاوز بكل ذلك تعامله الفني مع الطبيعة في حالات عديدة أسلوب التشخيص لدى شعراء المشرق إلى رؤية كلية تتوحد فيها الطبيعة بالإنسان لانتظامها في نظام كوني واحد يقوم على مبدأين:السكون والحركة.

أما السكون فقد أدركه الشاعر في الجبل عظمة وصموداً وخلوداً،وفي القمر وظلام الليل وفي ما أمدته به الثقافة من معاني سكون الصحراء،وأما الحركة فتتجسم في البحر واضطراب أمواجه وأعماقه والنهر وما حوله من خصوبة يداخلها نمو الحركة في أدق دقائقها،ويجري فيها كما في الإنسان ما يشبه ما يسميه برغسون بالاندفاع الحيوي،ويرسمه ابن خفاجة بأساليب الصورة الشعرية من خلال التشابيه والاستعارات المتراكمة و المتراكبة التي تنسب ما للطبيعة إلى الإنسان،و ما للإنسان إلى الطبيعة.

فبين الإنسان والطبيعة علاقة قُربى وتماثل في الوجود،فما يصدر عن الإنسان يصدر عن الطبيعة ،وما كمن فيه بالفطرة يكمن فيها ومآلها مآله،لكن لغته غير لغتها،وإنما الشاعر عن طريق التشخيص والأساليب يقرب ما بين الطبيعة والإنسان و ينقل أحوالها في لغته فيترجم عنها،ويفصح عما في نفسه،كذا كان شأن ابن خفاجة مع الجبل والقمر وعناصر الطبيعة الخصبة حول النهر و الشاب السابح فيه،إنه اللقاء بين الطبيعة والإنسان في رحاب العشق والعبادة والحياة بما لا نكاد نجد له مثيلاً لدى شعراء المشرق»[65]

وبالنسبة إلى الأوزان الشعرية والأغراض التي أكثر ابن خفاجة من طرقها،فالبحور المستعملة عنده في غالب الأحيان هي:الطويل والكامل،ويمثل المدح القسم الأوفر من إنتاجه الشعري،ويشمل عشرين قصيدة تتفاوت كمية حيث تبدأ من عشرين بيتاً وتصل إلى تسع وتسعين،والغرض الثاني الذي طرقه هو الرثاء،إضافة إلى الزهديات التي لم يتوسع فيها،حيث لا يلفي الدارس إلا سبع قصائد،ومقطعات شعرية مختلفة«إلا أنه ينبغي أن نلاحظ أن من العسير أن يستقل كل فن بنفسه،فكثيراً ما نعثر على أبيات من الشعر الزهدي خلال المراثي،ومن جهة أخرى ينبغي أن نلاحظ أن ابن خفاجة تجنب كل شعر يذكرنا بما أنشده في شبابه...

ويتجلى لنا ابن خفاجة شاعراً كلاسيكياً تقليدياً من ناحية المعاني،ومن ناحية الإطار الذي صاغ فيه قصائده–ولكن هناك ميزة تميزه عن غيره من الشعراء السابقين:فالصور والتشبيهات والاستعارات مأخوذة بأسرها من الطبيعة–وإنا لنشعر عند ابن خفاجة برغبة في المجيء بما هو جديد طريف،واستمرار ورود الطبيعة في شعره يدل على أنه ليس ثمة حد فاصل بين المرحلتين اللتين أشرنا إليهما من قبل.لقد بقي ابن خفاجة متمسكاً بالطبيعة تمسكاً شديداً،وزودته الطبيعة بكمية–تكاد لا تنفد–من صور متنوعة يانعة [66] ،وقد نوّع في معالجتها،وجمع بين التماثل والتميز،ومازج بين المشرقية والأندلسية.

خاتمة:

لقد اتضح من خلال هذا البحث أن اتجاهين رئيسين يعبران عن وجودهما في سياق وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي:

الاتجاه الأول وهو الذي ركز على الجوانب البدوية،والطبيعة الصحراوية،وهو الذي يوصف بالاتجاه التقليدي،أما الاتجاه الثاني فهو الذي عبر بدقة عن البيئة الأندلسية، وحضرت من خلاله عناصر الطبيعة الخصبة،وهو الاتجاه الذي يُستدل به لدى حديث الكثير من الدارسين عن التجديد.

فالاتجاه البدوي يُبرز الأثر المشرقي والتقليد،والاتجاه الحضري يجسد التجديد والارتباط بالبيئة الأندلسية،وقد اختلف تناول البداوة في وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي وفقاً لاختلاف تجربة الشعراء،و انعكس ذلك الاختلاف على مستوى اللغة والأساليب،والصور والأخيلة،ففي بعض الأحيان نلاحظ غلبة التشبيهات البدوية التي ترتبط بطبيعة الصحراء،وفي بعض الحالات تختفي الصور البدوية خلف التشبيهات والصور الحضرية التي تعكس البيئة الأندلسية،فالسمات البدوية–كما تذكر فوزية العقيلى– عبرت عن التشبع بأجواء العروبة،وديارها،وقديمها،وتراثها،وثقافتها،ولغتها،فقد كان الموروث البدوي يمد الشعر الأندلسي بأجنحة غير مرئية،تحلق به في فضاء شعري أوسع وأرحب،لأن الثقافة والموروث هما اللذان يعطيان الوقود للموهبة الشعرية، ،وقد كان شعراء الأندلس يعتزون بتأثرهم بسابقيهم والوفاء لتراثهم،كما أشار إلى ذلك ابن خفاجة في خطبة ديوانه،عندما ذكر تأثره بشعر الرضي ومهيار الديلمي،وعبد المحسن الصوري،والمتنبي–وما حذا حذوه وأخذ مأخذه–وهو في معظمه شعر بدوي.

والشعر كله مبني على التأثر بالقديم،والأفضلية كانت في قدرة الشاعر على أن يصوغ المعنى القديم أو المتداول صياغة جيدة ،وقد كانت الصور البدوية،والعناصر البدوية،والحياة البدوية،متغلغلة في اللاشعور الثقافي العربي لدى شعراء الأندلس.

ولذا،كانت البداوة اتجاهاً وفيضاً غزيراً ممتداً في معظم الشعر الأندلسي، إما أن تأتي ظاهرة وحاضرة بقوة لا فتة لهذا الحضور،بعمق التوغل في الصور البدوية،وإما أن تأتي خافتة الصوت من خلال ألفاظ،أو عبارات،أو إشارات بدوية،وإما أن تأتي متداخلة تداخلاً ثرياً غنياً في الصور الشعرية الأندلسية،يعبر فيها الشاعر عن شخصية أندلسية،كونتها البداوة،وعاش صاحبها في كنف الحضارة،فقد كان الجمع بين الموروث القديم والبيئة التي يعيش فيها الشعراء حالة خاصة في الشعر الأندلسي.

وقد اتخذنا ابن خفاجة نموذجاً لتوضيح بعض مظاهر التقليد في شعره،إضافة إلى تجلية بعض العناصر التي تبرز التجديد من خلال تعبيره بدقة عن الطبيعة الأندلسية في مجموعة من مقطوعاته الساحرة،و تركيزنا على ابن خفاجة لا يعني أنه الشاعر الوحيد الذي جمع بين التماثل والتميز،بل إن أغلب شعراء الأندلس ما زجوا في وصفهم للطبيعة بين التقليد والتجديد،وهذا دليل على علاقتهم الوطيدة بالمشرق العربي،إضافة إلى التصاقهم بالبيئة الأندلسية،فجمعوا بين المشرقية والأندلسية.

كما قدمنا من خلال هذا البحث عرضاً عن ظاهرة التقليد والتجديد في الشعر الأندلسي بعامة،والتي كانت موضعاً للكثير من الجدل والنقاش الواسع،وتطرقنا إلى أثر البيئة الأندلسية في شعر الطبيعة،وتوقفنا مع أبرز الرؤى والأفكار التي أدلي بها في هذا الصدد.

الهوامش:

(1)د.سيد نوفل:شعر الطبيعة في الأدب العربي:دار المعارف،الطبعة الثانية،القاهرة،مصر،د،ت،ص:24.

(2)د.يوسف عيد:دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام،منشورات المؤسسة الحديثة للكتاب ناشرون،طرابلس،لبنان،2006م،ص: 299 .

(3)د.شوقي ضيف:عصر الدول والإمارات–الأندلس–،دار المعارف،القاهرة،مصر،1989م،ص:293.

(4)د.شوقي ضيف:الفن ومذاهبه في الشعر العربي،دار المعارف ،القاهرة،مصر،ط:10، 1978م،ص:411.

(5)د.جودت الركابي:في الأدب الأندلسي، دار المعارف بمصر،القاهرة، ط: 02،1966 م، ص:130.

(6)د.أحمد مطلوب:معجم مصطلحات النقد العربي القديم،مكتبة لبنان ناشرون،بيروت،لبنان،الطبعة الأولى،2001م،ص:172.

(7)د.أحمد مطلوب:معجم مصطلحات النقد العربي القديم،ص:173.

(8)د.جبور عبد النور:المعجم الأدبي،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،الطبعة الثانية،1984،ص:75–76.

(9) مجدي وهبة وكامل المهندس:معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب،مكتبة لبنان،بيروت،ط: 02، 1998م،ص:339–340..

(10) د.محمد التونجي:المعجم المفصل في الأدب،دار الكتب العلمية،ج:01،ط:01، 1993م، بيروت، لبنان،ص:276.

(11) د.أحمد مطلوب: المرجع السابق،ص:137.

(12) د.جبور عبد النور:المعجم الأدبي،ص:58 و83.

(13) د.محمد التونجي:المعجم المفصل في الأدب،ج:01،ص:224.

(14)د.جودت الركابي:في الأدب الأندلسي،دار المعارف بمصر،القاهرة، ط:1966،02م،ص:101.

(15)د.عمر الدقاق:ملامح الشعر الأندلسي،دار الشرق العربي،بيروت،لبنان،د،ت،ص:44–45.

(16)د.سليم ريدان:ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي–من القرن الرابع إلى السادس هجرياً– منشورات كلية الآداب بجامعة منوبة،ج:01،تونس،2001م،ص:18.

(17)د.حنان إسماعيل أحمد عمايرة:الأثر المشرقي في شعر ابن خفاجة الأندلسي،مقال منشور في مجلة جامعة دمشق،المجلد:27،العدد الأول والثاني،2011م،ص:224.

(18)غرسية غومس (G.GOMEZ):الشعر الأندلسي:بحث في تطوره وخصائصه،ترجمة:حسين مؤنس،القاهرة،1956م،ص:46–47.

(19)د.عمر فروخ:تاريخ الأدب العربي،ج:04،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،ط:03،نيسان/أبريل1992م،ص:195–196.

(20)د.عمر فروخ:تاريخ الأدب العربي،ج:04،ص:197–198.

(21)د.عبد الله بن علي بن ثقفان:ظاهرة الانتماء في الأدب الأندلسي أنموذج فريد محاولة لاستقراء بعض النصوص التأريخية الأدبية،مقال منشور في مجلة دراسات أندلسية،مجلة علمية مختصة محكمة في الدراسات المتعلقة بإسبانيا الإسلامية،العدد:11،رجب1414هـ/جانفي1994م،ص:50.

(22)د.عبد الله بن علي بن ثقفان:ظاهرة الانتماء في الأدب الأندلسي أنموذج فريد محاولة لاستقراء بعض النصوص التأريخية الأدبية،المرجع نفسه،ص:52 وما بعدها.

(23)د.حسناء بوزويتة الطرابلسي:حياة الشعر في نهاية الأندلس،دار محمد علي الحامي،صفاقس،ومركز النشر الجامعي،تونس،الطبعة الأولى،2001م،ص:715.

(24)د.ميشال عاصي:الشعر والبيئة في الأندلس، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،ط: 01 ،1970م ص:53.

(25)د.شوقي ضيف:الفن ومذاهبه في الشعر العربي،دار المعارف ،القاهرة،مصر،ط:10، 1978م،ص:412.

(26)د.ميشال عاصي:المرجع السابق،ص:59-60.

(27) يُنظر تقديم الدكتور محمود علي مكي لكتاب «دراسات في الشعر الأندلسي »للدكتور علي الغريب محمد الشناوي ،منشورات مكتبة الآداب،القاهرة،مصر،ط:01، 1424هـ/2003م،ص:11.

(28)د.أحمد هيكل:الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة،دار المعارف،القاهرة،مصر،الطبعة العاشرة، 1986م،ص:84-85.

(29)د.عبد العزيز عتيق:الأدب العربي في الأندلس، الأدب العربي في الأندلس،دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،بيروت،لبنان،1976م ص:164-165.

(30)د.عبد العزيز عتيق:الأدب العربي في الأندلس،دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،بيروت،لبنان،1976م،ص:291.

(31) حكمة علي الأوسي:الأدب الأندلسي في عصر الموحدين،منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة،مصر،د،ت،ص:155.

(32) د.محمد عويد محمد ساير الطربولي:المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي،منشورات مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة،مصر،2005م ،ص:30-31 .

(33)مجدي وهبة وكامل المهندس:معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب،مكتبة لبنان،بيروت،ط: 02، 1998م،ص: 102.

(34)د.عبد العزيز عتيق:الأدب العربي في الأندلس،ص: 291.

(35)د.فوزي سعد عيسى:دراسات في أدب المغرب والأندلس،منشورات دار المعرفة الجامعية،القاهرة،مصر، 2000م،ص: 6 وما بعدها .

(36) د.حكمة علي الأوسي:الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ،ص:65.

(37)د.حكمة علي الأوسي:المرجع نفسه،ص:67 وما بعدها.

(38)د.علي الغريب محمد الشناوي:القصيدة الأندلسية في كتاب أعلام مالقة-دراسة فنية-،مكتبة الآداب،القاهرة،مصر،ط:01،2003م،ص:70 .

(39)د.يوسف عيد:دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام،ص: 276 .

(40)د.حكمة علي الأوسي:المرجع السابق،ص:87 وما بعدها.

(41)محمد حسن قجة:محطات أندلسية:دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي،الدار السعودية للنشر والتوزيع،ط:01،1405هـ/1985مً،ص:123-124.

(42)د.حكمة علي الأوسي:المرجع السابق،ص:90.

(43)د.جودت الركابي:في الأدب الأندلسي،ص:131 وما بعدها.

(44)د.مصطفى الشكعة:الأدب الأندلسي:موضوعاته وفنونه،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،ط:04،1979م،ص:256.

(45)د.يوسف عيد:المرجع السابق،ص: 284.

(46)د.حسن أحمد النوش:التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي،دار الجيل،بيروت،لبنان، ط: 01،1412هـ-1992م،ص:465.

(47)د.محمد رضوان الداية:أبحاث في الأدب الأندلسي والمغربي،مطبعة خالد بن الوليد،دمشق،سورية،1981م،ص: 207.

(48) د.حنان إسماعيل أحمد عمايرة:الأثر المشرقي في شعر ابن خفاجة الأندلسي ، مقال منشور في مجلة جامعة دمشق،المجلد:27،العدد الأول والثاني،2011م ،ص:257-258 .

(49)د.منجد مصطفى بهجت:ابن خفاجة الأندلسي والنقد الأدبي،مقال منشور في مجلة حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية،الدوحة،قطر، العدد التاسع عشر،1417هـ/1996م،ص:69-70 .

(50)د.حنان إسماعيل أحمد عمايرة: الأثر المشرقي في شعر ابن خفاجة الأندلسي ،ص:229.

(51)د.فوزية عبد الله العقيلي:الاتجاه البدوي في الشعر الأندلسي،مكتبة وهبة،القاهرة،مصر،ط:01،1433هـ/2012م،ص:97.

(52)عبد الرحمن جبير:ابن خفاجة الأندلسي،منشورات دار الآفاق الجديدة،بيروت،لبنان،ط:02،1401هـ/1981م،ص:21 .

(53)د.سليم ريدان:ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي ، منشورات كلية الآداب بجامعة منوبة،ج: 01،تونس،2001م ص:285 .

(54) د.سليم ريدان: ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي ،ص:289-290.

(55) د.فوزية عبد الله العقيلي:الاتجاه البدوي في الشعر الأندلسي،ص:195 وما بعدها.

(56)د.فوزية عبد الله العقيلي:المرجع نفسه،ص:225 وما بعدها.

(57) د.شوقي ضيف:فصول في الشعر ونقده،دار المعارف،القاهرة،مصر،ط:02، 1977م،ص:158 .

(58) عبد الرحمن جبير:ابن خفاجة الأندلسي،ص:97 .

(59)د.شوقي ضيف:عصر الدول والإمارات-الأندلس ،ص:320.

(60)د.جودت الركابي:المرجع السابق،ص:106 وما بعدها.

(61)محمد حسن قجة:محطات أندلسية:دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي، ص:123-124.

(62)د.فاطمة طحطح:الغربة والحنين في الشعر الأندلسي،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس، الرباط،المغرب،1993م،ص:207 .

(63) د.يوسف عيد:المرجع السابق،ص: 694 .

(64) د.سليم ريدان:المرجع السابق،ص:319 .

(65)د.سليم ريدان:المرجع نفسه،ص:319-320 .

(66) د.حمدان حجاجي:حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،الطبعة الثانية،1982م،ص:126 .

المصادر والمراجع:

1-أبحاث في الأدب الأندلسي والمغربي، د.محمد رضوان الداية ،مطبعة خالد بن الوليد،دمشق،سورية،1981م .

2- الأدب الأندلسي:موضوعاته وفنونه، د.مصطفى الشكعة،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،ط:04، 1979م.

3-الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، د.أحمد هيكل دار المعارف،القاهرة،مصر،الطبعة العاشرة،1986م.

4- الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، حكمة علي الأوسي،منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة،مصر،د،ت.

5- الأدب العربي في الأندلس، د.عبد العزيز عتيق،دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،بيروت،لبنان،1976م.

6- الاتجاه البدوي في الشعر الأندلسي، فوزية عبد الله العقيلي، مكتبة وهبة،القاهرة،مصر، ط:01، 1433هـ/2012م.

7- بلاغة العرب في الأندلس،د.أحمد ضيف،مطبعة مصر،1342هـ/1924م.

8- دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام، د.يوسف عيد، منشورات المؤسسة الحديثة للكتاب ناشرون،طرابلس،لبنان،2006م.

9-دراسات في أدب المغرب والأندلس، د.فوزي سعد عيسى،منشورات دار المعرفة الجامعية،القاهرة،مصر،2000م.
10-دراسات في الشعر الأندلسي، د. علي الغريب محمد الشناوي ،منشورات مكتبة الآداب،القاهرة،مصر،ط: 01، 1424هـ/2003م.
11- حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة، د.حمدان حجاجي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،ط:02 ،1982م.
12-حياة الشعر في نهاية الأندلس،د.حسناء بوزويتو الطرابلسي،دار محمد علي الحامي،صفاقس،ومركز النشر الجامعي،تونس،ط: 01،2001م.
13- محطات أندلسية،دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي، محمد حسن قجة، الدار السعودية للنشر والتوزيع،ط: 01 ،1405هـ/1985م.
14-المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي، د.محمد عويد محمد ساير الطربولي، منشورات مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة،مصر،2005م .
15- ملامح الشعر الأندلسي،د.عمر الدقاق،دار الشرق العربي،بيروت،لبنان،د،ت.
16- المعجم الأدبي،د.جبور عبد النور،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،الطبعة الثانية،1984.
17- المعجم المفصل في الأدب، د.محمد التونجي،دار الكتب العلمية،ج:01،ط:01، بيروت، لبنان،1993م.
18- معجم مصطلحات النقد العربي القديم،د.أحمد مطلوب مكتبة لبنان ناشرون،بيروت،لبنان،الطبعة الأولى،2001م.
19-معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس مكتبة لبنان،بيروت،ط:02،1984 م.
20- عصر الدول والإمارات-الأندلس-، د.شوقي ضيف:دار المعارف،القاهرة،مصر،1989م.
21-في الأدب الأندلسي،د.جودت الركابي،دار المعارف بمصر،القاهرة، ط:02، 1966 م.
22-الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د.شوقي ضيف ،دار المعارف ،القاهرة،مصر،ط:10، 1978م.
23-فصول في الشعر ونقده، د.شوقي ضيف دار المعارف،القاهرة،مصر،ط: 02 ،1977م.
24-القصيدة الأندلسية في كتاب أعلام مالقة-دراسة فنية-،د.علي الغريب محمد الشناوي:مكتبة الآداب،القاهرة،مصر،ط:2003،01م.
25- الشعر الأندلسي:بحث في تطوره وخصائصه، غرسية غومس(G.GOMEZ):ترجمة:حسين مؤنس،القاهرة،1956م.
26-الشعر والبيئة في الأندلس، د.ميشال عاصي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،ط: 01 ،1970م .
27- شعر الطبيعة في الأدب العربي د.سيد نوفل، دار المعارف،ط:02،القاهرة،مصر،د،ت.
28-تاريخ الأدب العربي،د.عمر فروخ،ج:04،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،ط:03،نيسان/أبريل1992م.
29- التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، د.حسن أحمد النوش، دار الجيل،بيروت،لبنان،ط: 01، 1412هـ-1992م.
30- ابن خفاجة الأندلسي، عبد الرحمن جبير،منشورات دار الآفاق الجديدة،بيروت،لبنان،ط:02،1401 هـ/1981م.
31- ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي-من القرن الرابع إلى السادس هجرياً-،سليم ريدان، منشورات كلية الآداب بجامعة منوبة،ج:01،تونس،2001م.
32- الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، د.فاطمة طحطح،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس، الرباط،المغرب،1993م.

-المجلات:

1- مجلة جامعة دمشق،المجلد:27،العدد الأول والثاني،2011م.

2-مجلة دراسات أندلسية،مجلة علمية مختصة محكمة في الدراسات المتعلقة بإسبانيا الإسلامية،العدد:11،رجب1414هـ/جانفي1994م.

3- مجلة حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية،الدوحة،قطر، العدد التاسع عشر،1417هـ/1996م.